

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية

للحافظ عمر بن علي البزار



تم تنزيل هذه المادة
من
منبر التوحيد والجهاد

<http://www.tawhed.ws>
<http://www.almaqdes.com>
<http://www.alsunnah.info>

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد

في ذكر ره

أما مولده فكان كما أخبرني به غير واحد من الحفاظ انه ولد في حران في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وست مئة وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين ثم إنتقل به وإلده رحمه الله إلى دمشق المحروسة فنشأ بها أتم إنشاء وأزكاه وأنته الله احسن النبات وأوفاه وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة ودلائل العناية فيه واضحة أخبرني من أثق به عن من حدثه أن الشيخ رضي الله عنه في حال صغره كان إذا أراد المضي إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله بطريقه بمسائل يسأله عنها لما كان يلوح عليه من الذكاء والفتنة وكان يجيبه عنها سريعا حتى تعجب منه ثم انه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء مما يدل على بطلان ما هو عليه فلم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه.

ولم يزل منذ أبان صغره مستغرق الأوقات في الجهد والاجتهاد وختم القرآن صغيرا ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث.

والآثار ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية أما دواوين الإسلام الكبارك مسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني والنسائي وابن ماجه والدارقطني فإنه رحمه الله ورضي عنهم وعنه فإنه سمع كل واحد منها عدة مرات وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالبا إلا ويبقى على خاطره أما بلفظه أو معناه وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسأثره فإنه لم يكن له مستعارا بل كان له شعارا وثارا لم يزل أبأوه أهل الدراية

**الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد**

التامة والنقد والقدم الراسخة في الفضل لكن جمع الله له ما خرق يمثله العادة ووقفه في جميع أمره لإعلام السعادة وجعل مآثره لإمامته من اكبر شهادة حتى اتفق كل ذي عقل سليم انه ممن عني نبينا بقوله أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها فلقد أحيا إله به ما كان قد درس من شرائع الدين وجعله حجة على أهل عصره أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني في غزارة علومه ومؤلفاته ومصنفاته وسعة نقله في فتاويه ودروسه البديهة ومنصوباته

أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره وباهر فصاحته وظاهر ملاحظته فإنه فيه من الغاية التي ينتهي إليها والنهية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قريء في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملة والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً يبيته ليستعد لتفسيره بل كان من حضر يقرأ ما تيسر ويأخذ هو في القول على تفسيره وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء آخر في معنى ما هو فيه من التفسير لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين ولقد أملى في تفسير (قل هو الله أحد) مجلداً كبيراً، وقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) نحو خمس وثلاثين كراسة ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً.

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله وأقواله وأفعاله وقضاياه ووقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله وما خصوا به من بين الأمة فإنه كان رضي الله عنه من أضيظ الناس لذلك وأعرفهم فيه وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى أو استشهاد به أو استدلال به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرهما وذكر اسم رواية من الصحابة وقل أن يسأل عن أثر إلا وبين في الحال حاله وحال أمره وذاكره.

ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محتته الأولى بمصر لما أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغارا وكبارا وذكر فيها ما أحتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقله وقائله بأسمائهم وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها وأي موضع هو منها كل ذلك بديهة من حفظه لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ونقبت واختبرت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير ومن جملتها كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به.

ومنها ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل وما روي عن كل منهم من راجح ومرجوح ومقبول ومردود في كل زمان ومكان وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه حتى كان إذا سئل عن شيء من ذلك كان جميع المنقول عن الرسول وأصحابه والعلماء فيه من الأولين والآخرين متصور مسطور بإزائه يقول منه ما شاء الله ويذر ما يشاء وهذا قد اتفق عليه كل من راه أو وقف على شيء من علمه ممن لا يغطي عقله الجهل والهوى.

وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرنى جملة أسمائها بل هذا لا يقدر عليه غالبا أحد لأنها كثيرة جدا كبارا وصغارا وهي منشورة في البلدان فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه.

فمنها ما يبلغ إثني عشر مجلدا ك تلخيص التلبيس على أساس التقديس وغيره.

ومنها ما يبلغ سبع مجلدات ك الجمع بين العقل والنقل ومنها ما يبلغ خمس مجلدات ومنها منهاج الاستقامة والاعتدال ونحوه ومنها ما يبلغ ثلاث مجلدات ك الرد على النصارى وشبهه ومنها مجلدان ك نكاح المحلل وإبطال الحيل وشرح العقيدة الأصبهانية ومنها مجلد ودون ذلك وهذان القسمان من مؤلفاته فهي كثيرة جدا لا يمكنني استقصاؤها لكن اذكر بعضها إستناسا.

كتاب تفسير سورة الإخلاص مجلد، كتاب الكلام على قوله عز وجل الرحمن على العرش استوى، كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول مجلد، كتاب الفرقان المبين

بين الطلاق واليمين، كتاب الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، كتاب الكلم الطيب، كتاب إثبات الكمال، كتاب الرد على تأسيس التقديس، كتاب الجمع بين العقل والنقل، كتاب نقض أقوال المتدعين، كتاب الرد على النصارى، كتاب منهاج الاستقامة، كتاب إبطال الحيل ونكاح المحلل، كتاب شرح العقيدة الأصبهانية، كتاب الفتاوى، كتاب الدر الملتقط، كتاب أحكام الطلاق، كتاب الرسالة، كتاب اعتقاد الفرقة الناجية، كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام، كتاب تقرير مسائل التوحيد، كتاب الاستغاثة والتوسل، كتاب المسائل الحموية، كتاب المسائل الجزرية، كتاب المسائل المفردة.

ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته وإلا فيمكن تعداد ما ينيف على المائتين لكن لم نر الإطالة بذكره.

وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها لكن دون بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلداً وهذا ظاهر مشهور وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة وقل أن وقعت واقعة وسئل عنها إلا وأجاب فيها بديهة بما بهر واشتهر وصار ذلك الجواب كالمصنف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله.

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري أنه حضر مجلس الشيخ رضي الله عنه وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر قد نظمها شعراً في ثمانية أبيات فلما وقف عليها فكر لحظة بسيرة وانشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً وقد ابرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاؤ شرحه مجلدين كبيرين هذا من جملة بواهره وكم من جواب فتوى لم يسبق إلى مثله.

وأما ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفوتها وكان لا يهيبني شيء من العلم ليلقيه ويورده بل يجلس بعد أن يصلي ركعتين فيحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم على صفة مستحسنة مستعذبة كم اسمعها من غيره ثم يشرع فيفتح الله عليه

**الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد**

إيراد علوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونقول
واستدلالات بايات واحاديث وأقوال العلماء ونصر بعضها
وتبين صحته أو تزيف بعضها وإيضاح حجه واستشهاد
بأشعار العرب وربما ذكر اسم ناظمها وهو مع ذلك يجري
كما يجري السيل ويفيض كما يفيض البحر ويصير منذ يتكلم
إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضا عينيه وذلك
كله مع عدم فكر فيه أو روية من غير تعجرف ولا توقف ولا
لحن بل فيض الهي حتى يبهر كل سامع وناظر فلا يزال
كذلك إلى أن يصمت وكنت أراه حينئذ كأنه قد صار بحضرة
من يشغله عن غيره ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد
القلوب ويحير الأبصار والعقول وكان لا يذكر رسول الله
قط إلا ويصلي ويسلم عليه ولا والله ما رأيت أحدا أشد
تعظيما لرسول الله ولا أحرص على أتباعه ونصر ما جاء به
منه حتى إذا كان ورد شيئا من حديثه في مسألة ويرى أنه
لم ينسخه شيء غيره من حديثه يعمل به ويقضي ويفتي
بمقتضاه ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنا من
كان وقال رضي الله عنه كل قائل إنما يحتج لقوله لا به إلا
الله ورسوله.

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ويقبل على الناس
بوجه طلق بشيش وخلق دمت كأنه قد لقيهم حينئذ وربما
اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال
ولقد كان درسه الذي يورده حينئذ قدر عدة كراريس وهذا
الذي ذكرته من أحوال درسه أمر مشهور يوافقني عليه كل
حاضر بها وهم بحمد الله خلق كثير لم يحصر عددهم علماء
ورؤساء وفضلاء من القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء
وغيرهم من عوام المسلمين.

الفصل الثالث في ذكر معرفته بأنواع أجناس المذكور والمقول والمنقول والمتصور والمفهوم والمعقول

أما معرفته بصحيح المنقول وسقيمه فإنه في ذلك من الجبال التي لا ترتقي ذروتها ولا ينال سنامها قل أن ذكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره وذاكره وناقله واثره أو راو إلا وقد عرف حاله من جرح وتعديل بإجمال وتفصيل.

حكى من يوثق بنقله أنه كان يوماً بمجلس ومحدث يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية وكان سريع القراءة فعارضه الشيخ في اسم رجل في سند الحديث قد ذكره القاريء بسرعة فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ، فانظر إلى هذا الإدراك السريع والتنبيه الدقيق العجيب ولا يقدر على مثله إلا من اشتدت معرفته وقوي ضبطه.

وأما ما وهبه الله تعالى ومنحه به من استنباط المعاني من الألفاظ النبوية والأخبار المروية وإبراز الدلائل منها على المسائل وتبيين مفهوم اللفظ ومنطوقه وإيضاح المخصص للعام والمقيد للمطلق.

والناسخ للمنسوخ وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها وما يترتب عليها وما يحتاج فيه إليها، حتى كان إذا ذكر آية أو حديثاً وبين معانيه وما أريد به أعجب العالم الفطن من حسن استنباطه وبدهشه ما سمعه أو وقف عليه منه.

ولقد سئل يوماً عن الحديث "لعن الله المحلل والمحلل له" فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً.

وقل إن كان يذكر له حديث أو حكم فيشأن أن يتكلم عليه يومه أجمع إلا فعل أو يقرأ بحضرة آية من كتاب الله تعالى ويشرع في تفسيرها إلا وقطع المجلس كله فيها.

وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم أهل الأهواء في أهوائهم وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وإشكالهم وإظهار عوارهم

وانتحالهم وتبديد شملهم وقطع أوصالهم وأجوته عن شبههم الشيطانية ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية بما منح الله تعالى به من البصائر الرحمانية والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية حتى ينكشف قناع الحق وبان بما جمعه في ذلك ألفه الكذب من الصدق حتى لو أن أصحابها أحياء ووقفوا لغير الشقاء لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق.

ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام.

حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب وتمييز القشر من اللباب أن كلا منهم لم يزل حائراً في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم وأنه لم يستقر في قلبه منها قول ولم يبن له من مضمونها حق بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل وجلها ممعن بتكلف الأدلة والتعليل وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل حتى من الله تعالى عليه بمطالعة مؤلفات هذا الإمام أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها فراها موافقة للعقل السليم وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ومن أراد اختبار صحة ما قلته فليقف بعين الإنصاف العربية عن الحسد والانجراف إن شاء على مختصراته في هذا الشأن كشرح الأصبهانية ونحوها وإن شاء على مطولاته كـ تخليص التلبيس من تأسيس التقديس والموافقة بين العقل والنقل ومنهاج الاستقامة والاعتدال فإنه والله يظفر بالحق والبيان ويستمسك بأوضح برهان ويزن حينئذ في ذلك بأصح ميزان.

ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم فسألته عن سبب ذلك والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه الفروع أمرها قريب ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطاه وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتملسفة والباطنية والملاحدة

**الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد**

والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلوية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلاوية والسليمية وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال وبأن لي أن كثيرا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين وإن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة مقبلا على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف ردائلهم ويزيف دلائلهم ذبا عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجليلة.

ولا والله ما رأيت فيهم أحدا ممن صنف في هذا الشأن وادعى علوم المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام، وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات وإنما هي جهالات وضلالات وكونه التزمها معرضا عن غيرها أصلا ورأسا فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم فتخبط حتى خبط فيها عشوا ولم يفرق بين الحق والباطل وإلا فالله اعظم لطفاً بعباده أن لا يجعل لهم عقلا يقبل الحق ويشتهه ويبطل الباطل وينفيه لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانا يزن به العبد الواردات فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق.

وما هو من قبيل الباطل ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل ولم يقع التكليف إلا مع وجوده فكيف يقال أنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم لكن ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

قال الشيخ الإمام قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنى صرقت جل همي إلى الأصول والزمني إن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما انعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية.

قلت: وقد أبان بحمد الله تعالى فيما ألف فيها لكل بصير الحق من الباطل وإعانة بتوفيقه حتى رد عليهم بدعهم وأراءهم وخدعهم وأهواءهم مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية حتى يجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جلية واضحة يعقلها كل ذي عقل صحيح ويشهد لصحتها كل عاقل رجيح.

فالحمد لله الذي من علينا برؤيته وصحته فلقد جعله الله حجة على أهل هذا العصر المعرض غالب أهله عن قليله وكثيره لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخرة فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لكن الله ذو القوة المتين ضمن حفظ هذا الدين إلى يوم الدين وأظهره على كل دين فالحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع في ذكر تعبده

أما تعبده رضي الله عنه فإنه قل إن سمع بمثله لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه حتى أنه لم يجعل لنفسه شأغلة تشغله عن الله تعالى ما يراد له لا من أهل ولا من مال.

وكان في ليله متفردا عن الناس كلهم خاليا بربه عز وجل صارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم مكررا لأنواع التعبادات الليلية والنهارية وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمينا ويسرة وكان إذا قرأ يمد قراءته مدا كما صح في قراءة رسول الله وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفرض وكان يخفف جلوسه للتشهد الأول خفة شديدة ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يسمع كل من حضر. فإذا فرغ من الصلاة أثنى على الله عز وجل هو ومن حضر بما ورد من قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ثم يقبل على الجماعة ثم يأتي بالتهليلات الواردة حينئذ ثم يسبح الله ويحمده ويكبره ثلاثا وثلاثين ويختم المائة بالتهليل كما ورد وكذا الجماعة ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين أجناس ما ورد.

وكان غالب دعائه: "اللهم انصرنا ولا تنصر علينا وامكر لنا ولا تمكر علينا واهدنا ويسر الهدى لنا اللهم اجعلنا لك شاكرين لك ذاكرين لك أواهين لك مخبتين إليك راغبين إليك راهبين لك مطاوع ربنا تقبل توباتنا وأغسل حوباتنا وثبت حجنا واهد قلوبنا أسل سخيمة صدورنا، يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي ثم يشرع في الذكر".

وكان قد عرفت عادته لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر فلا يزال في الذكر يسمع نفسه وربما يسمع ذكره من إلى جانبه مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة.

وكنت مدة إقامتي بدمشق ملازمه جل النهار وكثيرا من الليل وكان يدنيني منه حتى يجلسني إلى جانبه وكنت اسمع ما يتكلم وما يذكر حينئذ فرأيت يقرأ الفاتحة ويكررها

ويقطع ذلك الوقت كله اعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها.

ففكرت في ذلك لم قد لزم هذه السورة دون غيرها فبان لي والله أعلم ان قصده بذلك ان يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وما ذكره العلماء هل يستحب حينئذ تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن أو العكس فرأى رضي الله عنه ان في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعاً بين القولين وتحصيلاً للفضيلتين وهذا من قوة فطنته وثاقب بصيرته.

ثم انه كان يركع، فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر سارع إليه من فوره مع من يصحبه.

فقل أن يراه أحد ممن له بصيرة إلا وانكب على يديه يقبلهما حتى أنه كان إذا رآه أرباب المعاش يتخطون من حوائثهم للسلام عليه والتبرك به وهو مع هذا يعطي كلاً منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره.

وإذا رأى منكراً في طريقه أزاله أو سمع بجنابة سارع إلى الصلاة عليها أو تأسف على قواتها وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث فصلي عليه. ثم يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة ثم كذلك بقية يومه.

وكان مجلسه عاماً للكبير والصغير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى قد وسع على كل من يرد عليه من الناس يرى كل منهم في نفسه ان لم يكرم أحداً بقدره.

ثم يصلي المغرب ثم يتطوع بما يسره الله ثم اقرأ عليه من مؤلفاته أو غيري فيفيدنا بالطرائف ويمدنا باللطائف حتى يصلي العشاء ثم بعدها كما كنا وكان من الإقبال على العلوم إلى أن يذهب هوي من الليل طويل وهو في خلال ذلك كله في النهار والليل لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفع طرفه إلى السماء لا يكاد يفتر من ذلك كأنه يرى شيئاً يثبت بنظره فكان هذا دابة مدة إقامتي بحضرته.

**الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد**

فسبحان الله ما اقصر ما كانت يا ليتها كانت طالت ولا
والله ما مر على عمري إلى الآن زمان كان احب إلى من
ذلك الحين ولا رأيتني في وقت احسن حالا مني حينئذ وما
كان إلا ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وكان في كل أسبوع يعود المرضى خصوصا المدين
بالمارستان.

واخبرني غير واحد ممن لا يشك في عدالته أن جميع
زمن الشيخ ينقض على ما رأته فاي عبادة وجهاد افضل
من ذلك فسبحان الموفق من يشاء لما يشاء.

الفصل الخامس في ذكر بعض ورعه

كان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهي إليها في الورع لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلها عليه فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة ولا كان ناظرا مباشرا لمال وقف ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخرا دينارا ولا درهما ولا متاعا ولا طعاما وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضي الله عنه العلم اقتداءً بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى اله وصحبه أجمعين فإنه قال: "إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر".

وكان ينبه العاقل بحسن الملاطفة ودقيق المخاطبة ليختار لنفسه طريقتهم ويسلك سبيلهم وإن كان دونها من الطريق من إتخاذ المباحان جائز لكن العاقل يدله عقله على طلب الأعلى.

فأنظر بعين الإنصاف إلى ما وفق له هذا الإمام وأجرى عليه ما أقعد عنه غيره وخذل عن طلبه لكن لكل شئ سبب وعلامة عدم التوفيق سلب الأسباب ومن أعظم الأسباب لتترك فضول الدنيا التخلي عن غير الضروري منها.

فلما وفق الله هذا الإمام لرفض غير الضروري منها انصبت عليه العواطف الإلهية فحصل بها كل فضيلة جليلة بخلاف غيره من علماء الدنيا مختاريتها وطالبيها والساعين لتحصيلها فأنهم لما اختاروا ملاذها وزينتها ورئاستها انسدت عليهم غالبا طرق الرشاد فوقعوا في شركها يخبطون خبط عشواء ويخطبونها كحاطب ليل لا يبألون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يتأولون ما يحصل لهم أغراضهم الدنيئة ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة فهم متعاضدون على طلبها يتحاسدون بسببها أجسامهم مليئة وقلوبهم من غيرها فارغة وظواهرهم مزخرفة معمورة وقلوبهم خربة مأسورة، ولم يكفهم ما هم عليه حتى أصبحوا قالين رافضها معادين باغضها.

ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة تاركا لما هم عليه من تحصيل الحطام من الشبه الحرام رافضا الفضل المباح فضلا عن الحرام تحققوا أن أحواله تفضح أحوالهم وتوضح

خفي أفعالهم وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم
الشیطانية المباینة لصفاته الروحانية.

فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوه ونسوا انهم
ثعالب وهو أسد فحماه الله تعالى منهم بحراسته وصنع له
غير مرة كما صنع لخاصته وحفظه مدة حياته وحماه ونشر
له عند وفاته علما في الأقطار بما والاه.

الفصل السادس

في ذكر بعض زهده وتجرده وتقاعده عن الدنيا وتبعده

أما زهده في الدنيا ومتاعها فإن الله تعالى جعل ذلك له شعاراً من صغره حدثني من أثق به عن شيخه الذي علمه القرآن المجيد قال: قال لي أبوه وهو صبي يعني الشيخ احب إليك أن توصيه وتعهده بأنك إن لم تنقطع عن القراءة والتلقين ادفع إليك كل شهر أربعين درهماً. قال: ودفع إلي أربعين درهماً، وقال أعطه إياها فإنه صغير وربما يفرح بها فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظ القرآن ودرسه وقل له لك في كل شهر مثلها، فامتنع من قبولها وقال: يا سيدي إني عاهدت الله تعالى أن لا أخذ على القرآن أجراً، ولم يأخذها. فرأيت إن هذا لا يقع من صبي إلا لما لله فيه من العناية.

قلت: وصدق شيخه فإن عناية الله هي التي أوصلته إلى ما وصل من كل خير من صغيره لا من كبر.

ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا حتى لقد صار ذلك مشهوراً بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ من كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة لقال ما سمعت بمثل ابن تيمية رحمة الله عليه.

وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية وإلا فمن رأينا من العلماء قنع من الدنيا بمثل ما قنع هو منها أو رضي بمثل حالته التي كان عليها لم يسمع انه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جوار ولا بساتين ولا عقار ولا شد على دينار ولا درهم ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم ولا زاحم في طلب الرئاسة ولا رئى ساعياً في تحصيل المباحان مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله وفعله وادين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم مظهرين لإجلاله أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله.

فأبن حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم
وليسوا من أهله ممن قد أغراه الشيطان بالوقعة فيه
بقوله وفعله أتري ما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته
وسماتهم وسماته وتحاسدهم في طلب الدنيا وفراغه عنها
وتحاشدهم في الاستكثار منها ومبالغته في الهرب منها
وخدمتهم الأمراء واختلافهم إلى أبوابهم وذل الأمراء بين
يديه وعدم اكتراثه بكبرائهم وأترابهم ومداجاتهم وإظهار
تعبداتهم وصدعه إياهم بالحق وقوة جاشه في مجاورتهم
بلى والله، ولكن قتلتهم الحالقه، حالقة المدين لا حالقة
الشعر، وغطى على أحلامهم حب الدنيا السارقة سارقة
العقل لا سارقه البدن حتى أصبحوا قاطعين من يأتيهم في
طلبها وأصلين من وأصلهم في جلبها.

الفصل السابع في إثاره مع فقره وتواضعه

كان رضي الله عنه مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها وفقره فيها وتقلله منها مؤثرا بما عساه يجده منها قليلا كان أو كثيرا جليلا أو حقيرا لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير وكان يستفضل من قوته القليل الرغيف و الرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه وربما خباهما في كفه ويمضي ونحن معه لسماع الحديث فيراه بعضنا وقد دفعه إلي الفقير مستخفيا يحرص أن لا يراه أحد. وكان إذا ورد عليه فقير واثر المقام عنده يؤثره عند الأكل بأكثر قوته الذي جعل برسمه.

حدثني الشيخ الصالح العارف زين الدين علي المو اسطلي ما معناه أنه أقام بحضرة الشيخ مدة طويلة قال فكان قوتنا في غالبها أنه كان في بكرة النهار يأتيني ومعه قرص قدره نصف رطل خبزا بالعراقي فيكسره بيده لقمما وناكل منه أنا وهو جميعا ثم يرفع يده قبلي ولا يرفع باقي القرص من بين يدي حتى أشبع بحيث أني لا احتاج إلي الطعام إلى الليل وكنت أرى ذلك من بركة الشيخ ثم يبقى إلي بعد العشاء الآخرة حتى يفرغ من جميع عوائده التي يفيد الناسي بها في كل يوم من أصناف القرب فيؤتي بعشائنا فيأكل هو معي لقيمات ثم يؤثرني بالباقي وكنت أسأله ان يزيد علي أكله فلا يفعل حتى أني كنت في نفسي أتوقع له من قلة أكله

وكان هذا دأبنا في غالب مدة إقامتي عنده وما رأيت نفسي أعني منها في تلك المدة ولا رأيتني أفقرهما مني فيها.

وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار وتفقد المحتاجين والغرباء ورقبتي الحال من الفقهاء والقراء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه.

وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغنى الصالح والفقير وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه

ويؤنسه وببساطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعاناه بحمل حاجته جبرا لقلبه وتقربا بذلك إلي ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيرا كان أو صغيرا رجلا أو امرأة حرا أو عبدا عالما أو عاميا حاضرا أو باديا ولا يجبهه ولا يجرجه ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيبه ويفهمه ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وأنبساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره من الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غيره. ولقد بالغ معي في حال إقامتي بحضرته في التواضع والإكرام حتى إنه لا يذكرني باسمي بل يلقبني بأحسن الألقاب ويظهر لي خصوصا بين أصحابي من الإكرام والتبجيل والإدناء منه بحيث لا يتركني اجلس إلا إلى جانبه قصيرا كان مجلسه أو طويلا خاصا أو عاما ولازمني في حال قراءتي صحيح البخاري وكان قصدي قراءته على رواية منفردا لاستصغاري نفسي عن القراءة هناك بمحضر من الناس ولقصدي تعجيل فراغي منه انتهازا للفرصة وخوفا من فوات ذلك الشيخ الراوي لكونه تفرد بروايته سماعا على أصحاب أبي الوقت السجزي.

فلما سمع الشيخ بذلك ألزمني قراءته بمجمع كثير من الناس رجالا ونساء وصبيانا وقال ما ينبغي إلا على صفة يكون نفعها متعديا إلى المسلمين فتجرد لي بحيث حصل لي مرادي وفوقه من تحصيل قراءتي له في عشرين مجلسا متوالية لم يتخللها سوى الجمعة ولازمني فيها وحضر القراءة كلها بضبطها بنسخة كانت بيده هي أصل ابن ناصر الحافظ يعارض بها نسخة القراءة وكانت أصل الشيخ المسمى.

وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث أنه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحدا منّا يحملها عنه وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفا من سوء الأدب فيقول لـ و حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا احمل ما فيه كلام رسول الله؟

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس حتى إنني لاستحي من مجلسه هناك وأعجب من شدة تواضعه

ومبالغته في إكرامي بما لا استحق ورفعي عليه في المجلس ولولا قراءتي حديث رسول الله وعظم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك.

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاه حتى أن كل من إقياه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحو مما حكيت وأكثرت من ذلك فسبحان من وفقه وأعطاه وأجراه على خلال الخير وحباه.

الفصل الثامن في هيئته ولباسه

كان رضي الله عنه متوسطا في لباسه وهيئته لا يلبس فاخر الثياب بحيث يرمق ويمد النظر إليه ولا أطمأرا ولا غليظة تشهر حال لا بسها ويميز من عامة الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها من عالم وعابد بل كان لباسه وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم ولم يكن يلزم نوعا واحدا من اللباس فلا يلبس غيره بل كان يلبس ما اتفق وحصل ويأكل ما حضر وكانت بذادة الإيمان عليه ظاهرة لا يرى متصنعا في عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس ولا يتهيا لأحد يلقاه ولا لمن يرد عليه من بلد.

ومن العجب أني كنت قد رايتيه قبل لقيه بمدة فيما يرى النائم ونحن جلوس ناكل طعاما على صفة معينة فحال لقيتي له ودخولي عليه وجدته يأكل مثل ذلك الطعام على نحو من الصفة التي رايت فاجلسني واكلنا جميعا كما رايت في المنام.

وأخبرني غير واحد أنه ما رآه ولا سمع أنه طلب طعاما قط ولا غداء ولا عشاء ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل بل كان يؤتي بالطعام وربما يترك عنده زمانا حتى يلتفت إليه وإذا أكل شيئا يسيرا، قال وما رأيناه يذكر شيئا من ملاذ الدنيا ونعيمها ولا كان يخوض في شيء من حديثها ولا يسأل عن شيء من معيشتها بل جعل همته وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى.

وهكذا كان في لباسه لم يسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه بل كان أهله ياتون بلباسه وقت علمهم باحتياجه إلى بدل ثيابه التي عليه وربما بقيت عليه مدة حتى تتسخ ولا يأمر بغسلها حتى يكون أهله هم الذين يسألونه ذلك.

وأخبر أخوه الذي كان ينظر في مصالحه الدنيوية أن هذا حاله في طعامه وشرابه ولباسه وما يحتاج إليه مما لا بد منه من أمور الدنيا، وما رايت أحدا كان أشد تعظيما للشيخ من أخيه هذا أعني القائم بأوده وكان يجلس بحضرتيه كان على رأسه الطير وكان يهابه كما يهاب سلطانا، وكنا نعجب منه في ذلك ونقول: من العرف والعادة أن أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب بل يكون أنبساطهم معه فضلا عن الأجنبي ونحن نراك مع الشيخ

يُتلمذ مبالغ في احتشامه واحترامه، فيقول: إني أرى منه أشياء لا يراها غيري أوجبت علي أن أكون معه كما ترون. وكان يسأل عن ذلك فلا يذكر منه شيئاً لما يعلم من عدم إثارة الشيخ لذلك.

الفصل التاسع في ذكر بعض كراماته وفراسته

أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته.

فمنها اثنين حري بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها

ثم أن الشيخ رضي الله عنه حضر فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألة ويذكر أقوال العلماء ثم يرجح منها ما يرجحه الدليل حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه وبين لنا ما قصدنا أن نستعلمه منه فبقيت أنا وصاحبي ومن حضرنا أولاً مبهوتين متعجبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه مما كان في خواطرنا.

وكنت في خلال الأيام التي صحبته فيها إذا بحث مسألة يحضر لي إيراد فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده ويذكر الجواب من عدة وجوه.

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دمشق قال فاتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقة البتة وأنا لا أعرف أحداً من أهلها فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلم وهش في وجهي ووضع في يدي صرة فيها دراهم صالحة وقال لي أنفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه فإن الله لا يضيعك ثم رد علي أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي فدعوت له وفرجت بذلك، وقلت لبعض من رأيت من الناس من هذا الشيخ؟ فقال وكأنك لا تعرفه هذا ابن تيمية لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب.

وكان جل قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه فتحقق أن الله أظهره علي وعلى حالي فما احتجت بعدها إلى أحد مدة إقامتي بدمشق بل فتح الله علي من حيث لا احتسب واستدللت فيما بعد عليه وقصدت زيارته والسلام عليه فكان يكرمني ويسألني عن حالي فأحمد الله تعالى إليه.

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيماً بها فاتفق أني قدمتها ليلاً وأنا مثقل مريض فأنزلت في بعض الأماكن فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنيتي فأجبتته وأنا ضعيف فدخل إلي جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق فقلت كيف عرفتم يقدمومي وأنا قدمت هذه الساعة فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض وأمرنا أن نسرع بنقلك وما رأينا أحداً جاء ولا أخبرنا بشيء، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ رضي الله عنه.

وحدثني أيضاً قال مرضت بدمشق إذ كنت فيها مرضة شديدة منعني حتى من الجلوس فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي وأنا مثقل مشتت بالحمى والمرض فدعاني وقال جاءت العافية، فما هو إلا أن فارقني وجاءت العافية وشفيت من وقتي

وحدثني قال كنت قد استكتبت شعراً لبعض من انحرف عن الحق في الشيخ قد تنقصه فيه وكان سبب قول ذلك الشعر أنه نسب إلي قائله شعر وكلام يدل على الرفض فأخذ الرجل وأثبت ذلك عليه في وجهه عند حاكم من حكام الشرع المطهر فأمر به فشهر حاله بين الناس فتوهم أن الذي كان سبب ذلك الشيخ فحمله ذلك على أن قال فيه ذلك الشعر وبقي عندي وكنت ربما أورد بعضه في بعض الأحيان فوقع في عدة أشياء من المكروه والخوف متواترة ولولا لطف الله تعالى بي فيها لأتت على نفسي فنظرت من أين ذهبت فلم أر لذلك سبباً إلا إيراد بعض ذلك الشعر فعاهدت الله أن لا أتفوه بشيء منه فزال عني أكثر ما كنت فيه من المكروه وبقي بعضه وكان ذلك الشعر عندي فأخذته وحرقته وغسلته حتى لم يبق له أثر واستغفرت الله تعالى من ذلك فأذهب الله عني جميع ما كنت فيه من المكروه والخوف وأبدلني الله به عكسه ولم أزل بعد ذلك في خير وعافية، ورأيت ذلك حالاً من أحوال الشيخ ومن كرامته على الله تعالى.

وحدثني أيضاً قال أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال قدمت على الشيخ ومعني حينئذ نفقة فسلمت عليه فرد علي ورحب بي وأدناني ولم يسألني هل معك نفقة أم لا، فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتي أردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني وأجلسني دونهم فلما خلا المجلس دفع إلي جملة دراهم

وقال أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذه فعجبت من ذلك وعلمت أن الله كشفه علي حالي أولا لما كان معي نفقة وأخرا لما نفدت واحتجت إلى نفقة.

وحدثني من لا أتهمه أن الشيخ رضي الله عنه حين نزل المغل بالشام لأخذ دمشق وغيرها رجف أهلها وخافوا خوفا شديدا، وجاء إليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين فتوجه إلى الله ثم قال أبشروا فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثلاثة حتى ترون الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض.

قال الذي حدثني فوالذي نفسي بيده أو كما حلف ما مضى إلا ثلاث مثل قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض.

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النساج أن الشيخ رضي الله عنه كان يعود المرضى بالبيمارستان بدمشق في كل أسبوع فجاء على عادته فعادهم فوصل إلى شاب منهم فدعاه فشفى سريعا وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه فلما راه هش له وأدناه ثم دفع إليه نفقة وقال قد شفاك الله فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعا ضيعة وتقيم هاهنا؟ فقبل يده وقال يا سيدي أنا تائب إلى الله على يدك وقال الفتى وعجبت مما كاشفني به وكنت قد تركتهم بلا نفقة ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق.

وحدثني من أثق به أن الشيخ رضي الله عنه أخبر عن بعض القضاة أنه قد مضى متوجها إلى مصر المحروسة ليقصد القضاء وأنه سمعه يقول حال ما أصل إلى البلد قاضيا أحكم بقتل فلان رجل معين من فضلاء أهل العلم والدين قد أجمع الناس على علمه وزهده وورعه ولكن حصل في قلب القاضي منه من الشحنة والعداوة ما صوب له الحكم بقتله فعظم ذلك على من سمعه خوفا من وقوع ما عزم عليه من القتل لمثل هذا الرجل الصالح وحذرا على القاضي أن يوقعه الهوى والشيطان في ذلك فيلقي الله متلبسا بدم حرام وفتك بمسلم معصوم الدم بيقين وكرهوا وقوع مثل ذلك لما فيه من عظيم المفساد فأبلغ الشيخ رضي الله عنه هذا الخبر بصفته، فقال إن الله لا يمكنه مما قصد ولا يصل إلى مصر حيا فبقى بين القاضي وبين مصر

قدر يسير وأدركه الموت فمات قبل وصولها كما أجرى الله تعالى على لسان الشيخ رضي الله عنه.

قلت وكرامات الشيخ رضي الله عنه كثيرة جدا لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها ومن أظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاداه أو غص منه إلا وأبتلي بعدة بلايا غالبها في دينه وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفته.

الفصل العاشر في ذكر كرمه رضي الله عنه

كان رضي الله عنه محبوباً على الكرم لا يتطبعه ولا يتصنعه بل هو له سجية وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط بل كان مهماً قدر على شيء من ذلك يجود به كله وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنائير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك.

بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة فإن كان حينئذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله.

حدثني الشيخ العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال: كنت يوماً جالساً بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه فجاء إنسان فسلم عليه فراه الشيخ محتاجاً إلى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين وأعتم بنصفها ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل ولم يحتشم للحاضرين عنده.

قلت: وربما توهم بعض من يحتاج إلى التفهيم أن هذا الفعل من الشيخ فيه إضاعة المال أو نوع من التبذل الذي يشين المروءة وليس الأمر كذلك فإنه لم يكن عنده حينئذ معلوم غير ثيابه ورأى أن قطع غير العمامة من بقية لباسه مما يفسده ولا يحصل به المقصود ولم يكن عليه ولا عنده حينئذ ثوب صحيح لا يحتاج إليه حتى يدفعه إليه فسارع إلى قطع ما يستغنى ببعضه عن كله فيما وضع له وهو العمامة فنفع أخاه المسلم وسد حاجته حينئذ ببعضها واستغنى هو بباقيها وهذا هو أكمل التصرف الصالح والرشد التام.

والجود المذكور المشهور والإيثار بالميسور وأما التبذل الذي فيه نوع إسقاط المروءة فليس من هذا القبيل في شيء بل هذا من المبالغة في التواضع وعدم رؤية النفس في محل الاحتشام ورفض إرادة المرء تعظيم نفسه بحضرة الحاضرين وهذه خصال محمودة مطلوبة شرعاً وعقلاً.

وقد روي مثل ذلك عن سيد الأنام وأكمل الخلق مروءة وعقلاً وعلماً محمد المصطفى أنه لبس يوماً شملة

سوداء لها حواش بيض وخرج إلى المسجد وجماعة من المسلمين حضور قراه إنسان فقال يا رسول الله أعطني هذه الشملة وكان لا يمنع سائلا يسأله فنزعها رسول الله عن جسدة المكرم ودفعها إلى ذلك.

الرجل وطفق الناس يلومون ذلك الرجل على ما فعل وكونه سأل النبي وكان محتاجا إلى ما لبسه وقد علم أنه لا يمنع شيئا يسأله فقال الرجل معتذرا إليهم إني لم أطلبها لألبسها لكن لأجعلها لي كفنا عند موتي.

قال الراوي: فامسكها عنده حتى كانت كفته.

وهذا حديث مشهور قد رواه غير واحد من الحفاظ النقلة الثقات وهو من أوضح الدلائل على ما قلناه بل أبلغ في الجود والتواضع وكسر النفس وكرم الأخلاق.

وحدثني من أثق به أن الشيخ رضي الله عنه كان مارا يوما في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه فنزع ثوبا على جلده ودفعه إليه وقال به بما تيسر وأنفقه واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة.

وهذا أيضا من المبالغة في عدم اكتراثه في غير ما يقرب إلى الله تعالى وجوده بالميسور كائنا ما كان وهذا من أبلغ إخلاص العمل لله عز وجل فسبحان الموفق من شاء لما شاء.

وحدثني من أثق به أن الشيخ رضي الله عنه كان لا يرد أحدا يسأله شيئا كتبه بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها.

وأخبرني أنه جاءه يوما إنسان يسأله كتابا ينتفع به فأمره أن يأخذ كتابا يختاره فراه ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفا قد اشترى بدراهم كثيرة فأخذه ومضى.

فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك فقال أيحسن بي أن امنعه بعد ما سأله دعه فلينتفع به.

وكان الشيخ رضي الله عنه ينكر إنكارا شديدا على من يسأل شيئا من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل ويقول ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه.

ومن كرمه انه كان لا ينظر مع ذلك إلى جهة الملك
والتمول وهذا القدر من كرمه يغنى المقتدي به.

الفصل الحادي عشر في ذكر قوة قلبه وشجاعته

كان رضي الله عنه من أشجع الناس وأقواهم قلبا ما رأيت أحدا أثبت جاشا منه ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبر غير واحد أن الشيخ رضي الله عنه كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقبتهم وقطب ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعدته بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يتحنك ويجول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كآثيت الفرسان ويكبر تكبيرا انكى في العدو من كثير من الفتك بهم ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها، قالوا ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره.

ولما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف.

فانتدب منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي الأعلام منهم فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان فلما رأهم السلطان قال من هؤلاء فقبل هم رؤساء دمشق فأذن لهم فحضروا بين يديه. فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولا فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكرج على المسلمين وضمن له أموالا وأخبره بحرمة دماء المسلمين وذكره ووعدته فأجابته إلى ذلك طائعا وحقنت بسببه دماء المسلمين وحميت ذراريتهم وصين حريمهم.

وحدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا قدس الله روحه قال: كنت حاضرا مع الشيخ حينئذ فجعل - يعني الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركة السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه وأن السلطان من شدة ما أوقع الله ما في قلبه من المحبة والهيبة سال من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ وقال ما معناه إنني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادا مني لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعدك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا وأيوك وجدك كنا كافرين وما عملا الذي عملت عاهدا قوفيا وأنت عاهدت فعدرت وقلت فما وفيت وجرت.

وسأله إن أحببت أن أعمرك لك بلد آباءك حران وتنتقل إليه ويكون برسمك فقال لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم استبدل به غيره.

فخرج من بين يديه مكرما معززا قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه ما أراد، وكان ذلك أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم

وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش.

وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه فإن رجلا شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحدا، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك.

وأخبرني من لا أتهمه أن الشيخ رضي الله عنه حين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد أحضره بين يديه قال فكان من جملة كلامه:

إنني أخبرتك أنك قد أطاعك الناس وأن في نفسك اخذ الملك، فلم يكثر به بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر أنا أفعل ذلك والله إن

ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك واجابة في مقابلته بما اوقع الله له في قلبه من الهية العظيمة إنك والله لصادق وإن الذي وشيء بك إلي كاذب واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقي إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان ممن ظاهر حاله للطغام العدالة وباطنه مشحون بالفسق والجهالة.

ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء وأكلو الدنيا بالدين متعاضدين متناصرين في عدوانه بأذلين وسعهم بالسعي في الفتك به متخرصين عليه بالكذب الصراح مختلقين عليه وناسبين إليه ما لم يقله ولم ينقله ولم يوجد له به خط ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ولا سمع منه في مجلس.

أتراهم ما علموا أن الله سائلهم عن ذلك ومحاسبهم عليه أو ما سمعوا قول الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

بلي والله ولكن غلب عليهم ما هم فيه من إيثار الدنيا على الآخرة والعمل للعاجلة دون الأجلة فلهدا حسدوه وابغضوه لكونه مباينهم ومخالفهم لبغضه ورفضه ما احبوا وطلبوا ومحبته ما باينوا ورفضوا، ولما علم الله نياته ونياتهم أبي أن يظفرهم فيه بما راموا حتى أنه لم يحضر معه منهم أحد في عقد مجلس إلا وصنع الله له ونصره عليهم بما يظهره على لسانه من دحض حججهم الواهية وكشف مكيدتهم الداهية للخاصة والعامه.

الفصل الثاني عشر من ذكر قوته في مرضاة الله وصبره على الشدائد واحتماله إياها وثبوتته على الحق إلى أن توفاه الله تعالى على ذلك صابرا محتسبا راضيا شاكرا

كان رضي الله عنه من أعظم أهل عصره قوة ومقاما وثبوتا على الحق وتقريراً لتحقيق توحيد الحق لا يصدده عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل ولا يرجع عنه لحجة محتج بل كان إذا وضح له الحق يعرض عليه بالنواجذ ولا يلتفت إلى مباين معاند فاتفق غالب الناس على معاداته وجعل من عاداه قد تستروا باسم العلماء والزمرة الفاخرة وهم أبلغ الناس في الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.

وسبب عدواتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرئاسة وإقبال الخلق وراؤه قد رفاه الله إلى ذروة السنام من ذلك بما أوقع له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحها بها وهم عنها بمعزل فنصبوا عدواته وامتلات قلوبهم بمحاسدته وأرادوا ستر ذلك عن الناس حتى لا يفتن بهم فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه والوقوع فيه خصوصا عند الأمراء والحكام وإظهارهم الإنكار عليه ما يفتي به من الحلال والحرام فشققوا قلوب الطغام بما إجتروه من زور الكلام ونسبوا ان لكل قول مقاما أي مقام بين يدي أحكم الحكام يسأله هل قلته بحق أو بذام فيجازي المحق دار السلام والمبطل دار الانتقام. فبعضهم صبا إلى أقوالهم تقليدا وصار في حق هذا الإمام جبارا عنيدا أحس بذلك من العامة قوم قد أصبحوا للحكام عبيدا وتصوروا أن أخذهم بزمام حصول المال يكون شديدا فأصبحوا وهم لهم مصدقين وفي طاعتهم مستبقين.

فاجتمع من هذا التركيب العتيد بحيث عاداه أكثر السادات والعبيد كل بحسب غرضه الفاسد.

وهو مع ذلك كلما رأى تحاشدهم في مباينته وتعاضدهم في مناقضته لا يزداد إلا للحق انتصارا ولكثرة حججه وبراهينه إلا إظهارا.

ولقد سجن أزمانا وأعصارا وسنين وشهورا ولم يولهم دبره فرارا ولقد قصد أعداؤه الفتك به مرارا وأوسعوا

حيلهم عليه إعلانا وإسرارا فجعل الله حفظه منهم له شعارا ودثارا ولقد ظنوا أن في حبسه ميشينة فجعله الله له فضيلة وزينة وظهر له يوم موته ما لو رآه واده أقر به عينيه فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجله ألبسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة بل على قوة في الحق وعزيمة.

هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق وبهر بفنونه البصائر والأحاديق وملا بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق كتبنا ورعنا للأعداء أهل البدع المضلة والأهواء وصنعا عظيمة من رب السماء لعوائده لخاصة الأولياء أهل المحبة والولاء.

الفصل الثالث عشر في أن الله جعله حجة في عصره ومعياراً للحق والباطل ومريد الأجل وغير مؤثر العاجل

وهذا امر قد اشتهر وظهر فإنه رضي الله عنه ليس له مصنف ولا نص في مسألة ولا فتوى إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلى والعقلي على غيره وتحرى قول الحق المحض فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها ويجزم بأنها الحق المبين وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد.

وإذا نظر المنصف اليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان ولا يراقب في الاخذ بعلومهما أحداً ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سوطاً ولا سيفاً ولا يرجع عنهما لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى واليد الطولى وعامل بقوله تعالى فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن.

تأويلاً وبقوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شئ فحكمة إلى الله).

وما سمعنا انه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعتة للكتاب والسنة والإمعان في تتبع معانيهما والعمل بمقتضاهما ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلا وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسنة وتحرى الاخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول.

ولما من الله عليه بذلك جعله حجة في عصره لأهله حتى إن أهل البلد البعيد عنه كانوا يرسلون إليه بالاستفتاء عن وقائعهم ويعولون عليه في كشف ما التبس عليهم حكمه فيشفي غلتهم بأجوبته المسددة ويبرهن على الحق من أقوال العلماء المقيدة حتى إذا وقف عليها كل محق ذو بصيرة وتقوى ممن قد وفق لترك الهوى أذعن بقبولها وبأن له حق مدلولها وإن سمع عن أحد من أهل وقته مخالفته في حقه المشهور يكون ممن قد ظهر عليه للخاصة وللعامه فعل الشرور والاشتغال بترهات الغرور ومن أراد

تحقيق ما ذكرته فليمعن النظر بصيرته فإنه حينئذ لا يرى عالماً من أي أهل بلد شاء موافقاً لهذا الإمام معترفاً بما منحه الله تعالى من صنوف الإلهام مثبته عليه في كل مجفل ومقام إلا وراءه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة وأشغلهم بطلب الآخرة وأرغبتهم فيها وأبلغهم في الإعراض عنها وأهملتهم لها ولا يرى عالماً مخالفاً له منحرفاً عنه ملتبساً بالشحناء له إلا وهو من أكبرهم نهمته في جمع الدنيا وأوسعهم حيلة في تحصيلها وأكثرهم رياءً وأطلبهم سمعة وأشهرهم عند ذي اللب أحوالاً رديئة وأشدهم على ذوي الحكم والظلم دهاء ومكراً وابتسأهم في الكذب لساناً.

وإن نظر إلى محبيه ومبغضيه من العوام رأهم كما وصفت من اختلاف القبيلتين الأولين ولقد أمعنت فكري ونظري فيما ذكرته فرأيت كما وصفته لا والله ما أخرج في أحد منهما ومن ارتاب في ذلك فليعتبر هو بنفسه فإنه يراه كذلك إن أزاح عنه غطاء الهوى وما كان ذلك كذلك إلا لما علم الله سبحانه من حسن طوية هذا الإمام وإخلاص قصده وبذل وسعه في طلب مرضاة ربه ومتابعة سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

الفصل الرابع عشر في ذكر وفاته وكثرة من صلى عليه وشيعه

أخبرني غير واحد ممن كان حاضرا بدمشق حين وفاته رضي الله عنه:

قالوا: إن الشيخ قدس الله روحه مرض أياما يسيرة وكان إذ ذاك الكاتب شمس الدين الوزير بدمشق المحروسة فلما علم بمرضه استأذن في الدخول عليه لعيادته فأذن الشيخ له في ذلك فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حقه من تقصيرا وغيره، فأجابه الشيخ رضي الله عنه بأنني قد أحلتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أنني على الحق. وقال ما معناه إنني قد أحلت السلطان الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدا غيره معذورا ولم يفعله لحظ نفسه بل لما بلغه مما ظنه حقا من مبلغة والله يعلم انه بخلافه. وقد أحلت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدوا لله ورسوله.

قالوا: ثم إن الشيخ رضي الله عنه بقي إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام وتوفي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبع مئة وهو على حاله مجاهدا في ذات الله تعالى صابرا محتسبا لم يجبن ولم يهلع ولم يضعف ولم يتتعت بل كان رضي الله عنه إلى حين وفاته مشتغلا بالله عن جميع ما سواه.

قالوا: فما هو إلا أن سمع الناس بموته فلم يبق في دمشق من يستطيع المجئ للصلاة عليه وأرادة إلا حضر لذلك وتفرغ له حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معاشها حينئذ وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام.

قالوا: ولم يتخلف أحد من غالب الناس فيما اعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فاهلكوهم.

فغسل رضي الله عنه وكفن.

قالوا: وازدحم من حضر غسله من الخاصة والعامّة على الماء المنفصل عن غسله حتى حصل لكل واحد منهم شيء قليل.

ثم أخرجت جنازته فما هو إلا أن رآها الناس فأكبوا عليها من كل جانب كلا منهم يقصد التبرك بها حتى خشي على النعش أن يحطم قبل وصوله إلى القبر فأحرق بها الأمراء والأجناد واجتمع الأتراك فمنعوا الناس من الزحام عليها خشية من سقوطها وعليهم من اختناق بعضهم وجعلوا يردونهم عن الجنازة بكل ما يمكنهم وهم لا يزدادون إلا ازدحاما وكثرة حتى أدخلت جامع بني أمية المحروس ظنا منهم أنه يسع الناس فبقي كثير من الناس خارج الجامع وصلى عليه رضي الله عنه في الجامع ثم حمل على أيدي الكبراء والأشراف ومن حصل له ذلك من جميع الناس إلى ظاهر دمشق ووضع بارض فسحة متسعة الأطراف وصلى عليه الناس.

قال أحدهم: وكنت أنا قد صليت عليه في الجامع وكان لي مستشرف على المكان الذي صلى فيه عليه بظاهر دمشق فأحببت أن أنظر إلى الناس وكثرتهم فأشرفت عليهم حال الصلاة وجعلت أنظر بمينا وشمالا ولا أرى أواخرهم بل رأيت الناس قد طبقوا تلك الأرض كلها.

واتفق جماعة من حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف. وقال العارفون بالنقل والتاريخ لم يسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه.

ثم حمل بعد ذلك إلى قبره فوضع وقد جاء الكاتب بشمس الدين الوزير ولم يكن حاضرا قبل ذلك فصلى عليه أيضا ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس.

ولم ير لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة وتعظيم الناس لها وتوقيرهم إياها وتفخيمهم أمر صاحبها وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا والاشتغال بالآخرة والفقر والإيثار والكرم والمروءة والصبر والثبات والشجاعة والفراصة والإقدام والصدع بالحق والإغلاظ

**الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية
منبر التوحيد والجهاد**

على أعداء الله وأعداء رسوله والمنحرفين عن دينه والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله والتواضع لأوليائه الله والتذلل لهم والإكرام والإعزاز والاحترام لجناهم وعدم الإكتراث بالدنيا وزخرفها ونعيمها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخر والمواظبة على طلبها حتى لتسمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان، وكل منهم يثنى عليه بما يعلمه من ذلك.

ودفن في ذلك اليوم رضي الله عنه أعاد علينا من بركاته.

ثم جعل الناس يتناوبون قبره للصلاة عليه من القرى والأطراف والأماكن والبلاد مشاة وركبانا.

وما وصل خبر موته إلى بلد فيما نعلم إلا وصلي عليه في جميع جوامعه ومجامعه خصوصاً أرض مصر والشام والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها.

وختمت له الختمات الكثيرة في الليالي والأيام في أماكن كثيرة لم يضبط عددها خصوصاً بدمشق المحروسة ومصر والعراق وتبريز والبصرة وغيرها حتى جعل كثير من الناس القراءة له ديدناً لهم أديرت الربعة الشريفة على الناس لقراءة القرآن المجيد وإهدائه له وظيفة معتادة.

وقد رثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة ولا يسع هذا المختصر ذكرها.

وذلك لما وجب للشيخ رضي الله عنه عليهم من الحق في إرشادهم إلى الحق والمنهج المستقيم بالأدلة الواضحة الجلية العقلية والعقلية خصوصاً في أصول الدين فإن الله انعم على الناس في هذا الزمان الذي قد ظهرت فيه البدع فأميتت السنن وصار أغلب أهله ممرجين في البدع والحرام من حيث لا يشعرون ومن حيث لا يعلمون.

ومن الله عليهم بما وفقه له من إيضاح أصول الدين وتبيين الحق المحض والاعتقاد العدل وإفراجه عن غيره من البدع والضلالات بأمور لم يسبق إلى مثلها وإظهارها على لسانه بما أورده من ذلك في مؤلفاته ومصنفاته وقواعده المطابقة للحق وتقريراته وما أبرزه من الحجج والبراهين الظاهرة الموافقة للمعقول والمنقول مما لم يتمكن أحد من المتكلمين والمناظرين الإتيان بمثله وما

أظهره وأورده من كثرة الدلائل العقلية بعد النقلية حتى قطع به جميع المبتدعين وكشف به عوار حجج الشاكين المشككين .



تم تنزيل هذه المادة
من
منبر التوحيد والجهاد

<http://www.tawhed.ws>
<http://www.almaqdes.com>
<http://www.alsunnah.info>